كثيرةٌ أنت على قلبٍ واحد

أسماء عقوني - الجزائر

إنَّنا بجب أن نظهرَ للعيان؛ لأن كلَّ ما بداخلنا يدفعنا للحيرة...

بِتواطُؤٍ مع الزمن لم أغادرْ الذكرى وبقيتُ هنا واقفًا على عتبة الانتظار وتزيد من وحشة المكان تجاعيد المساء...وتحت سطوةِ الماضي لا يبقى أمامي سوى الندم....آهٍ كمْ يقتلنا الندم بدم بارد!...قاربَ اليومُ على لَفْظِ أنفاسه الأخيرة وكان النهار مُهْتَرِئًا كأنه لَبِسَ من طرف كلِّ البشر ورمي مساءً في سلة الذكريات...وتنام كلُّ الأعين لكني لا أنام!

بداخلي ضفتان لا جسرَ يمتدُّ بينهما، وَحْدَهُ السؤال بطعم الوجع هو من يَعْبُرُ حافيًا يمشي على الجرح ببطئٍ...هو لا يجيد إلا فتحَ الماضي ليعيد كل ما كان...أسأل نفسي...هل كان التذكُّرُ صعبا...!؟ أم هو أَلَمُ العودة للوراء...يَعْبُرُنِي السؤال ولا يَكُفُّ عن دَقِّ بابٍ كنت قد أغلقتُه من سنين أو بالأصح اعتقدتُ أني أحكمتُ إغلاق إقفاله...أحاول أن لا أُنْصِتَ لهاته الأصوات لكنّها تغري كل ما فِيَّ من اشتياقٍ وحنين فتستدرجُني أفكاري إلى حافةِ الذكرى هنا ومن هذا العلوّ أشاهد ما لم أَرَهُ وأنا في عَبَثِي القديم؛ فأعتزل كلَّ ما هو طبيعيٌّ وأعبر ماضيًا من أيامٍ لعلِّي أجدني بين ثنايا العمر...

كانت آخر رسائلها اليائسة تترصّد الأمل في اللقاء...حينها لم أفهم أنه ألمُ الممكن المستحيل، وأني كنت بالنسبة لها أستحق المحاولة...فالحب هو من يصنع لها الأمكنة...فنحنُ نولد حقًّا عندما نُحبّ...متأخر كعادتي متشبث بكل ما هو أنا، لا أريد أن أحب إلا ذاتي هكذا لم أتغير...من شرفتي النرجسية أُطِلُّ بكبرياء أحمق، لم أُدْرِكْ أني أعني الحياة لشخص لم ينتظرْ حتى الرد على رسائله المستسلمة للنسيان...في تلاشي الرغبة كانت تكتب لها ولي لتحكي سطورُها البريئة قصةَ حُبٍّ يولد من رحم الشقاء...قالت: "لم يكن حبُّكَ مشروع حياة، لم يكن قرارًا، كان قدرًا، كان لأنه يجب أن يكون هكذا دون كثير من علامات الغباء التي تسأل عن النهايات؛ لذا لا تَدَعْ تفسير الأمور يفسدُ علينا هاته اللحظات؛ فما مَضَى لا يعود، ولا تتنفس العاطفة هواء تلوّثُه الحسابات...ففي حضرة الحب لا مكان لممارسات العقل، فلا داعي للتذاكي على ما بقي من رغبةٍ في كسر خرافة المفروض وما يجب أن نُمَثِّلَه من أدوارٍ مزيفة لنعيش أجسادًا باليةً، وقلوبًا معلَّقةً تحرّكُها رياحُ الحب الضائع...فقد تعبت الروح من عمرٍ هزيلٍ لم يعد يستطيع حمل أحلامه التي تسقط منه حلمًا بعد حلم...لذا قرّرتُ أن أركب صَهْوَةِ الحب...وأقفز فوق فُوّهة المعتاد والمألوف...أعلم أنها وثبةٌ نحو المجهول لكني سأحملُ كلماتي بما فيها من نبضٍ؛ فهي تمنحني القوة...

لا يُهمّني ماذا أو ما هو المعقول؟ من يجب أن يبادر بالبوح بهذا الخفقان المتسارع على نغمات الحب؟...لأني معك تجاوزتُ حدودَ الأنا معك أصبح؛ لي وجودٌ فيك وبك حيث تُزْهِرُ أبجديات الأمل...لأنَّ الروح من تُحِبُّ لا الجسد؛ ولذا فحبك سَرْمَدِيٌّ وُجِد ليبقى، حتى عندما نرحل سيبقى يستمتع بميلاده

في كل لحظة، هو بداخلي يراكَ بعيونٍ عاشقةٍ يختبئ من أحاديث غيرنا ومن نظراتهم له؛ لأنها تخلق أجوبةً أكبر منه تفقده الرغبة في البقاء دعني أحدق بك بين الكلمات وتعانق أنفاسك حروف الاشتياق، وحتى وإن لم نلتقِ؛ فسيبقى البحث عنك مغامرة تستحق العناء...يا بطلًا بعبق الحبر استعمرت بياض أوراقي واستسلم لك القلم...سأبحث عنك لأنني يجب أن أحلم بأن نكون معا، إنه قانون المحاولة داخل عالم من ورق، يبقى الحب مشروعا افتراضيًّا يوجد بك ومعك...لذا سأعيش بما يكفي لأكتب عنك"...

آآآه...كم كانت امرأة تتقن الكتابة على إيقاع الشوق، كنتُ بعد كل رسالة أصحو كالثَّمِل من ليلة سكرٍ رأسي ثقيل وبي نشوةٌ تشوبُها ترنيمةٌ كِبْرٍ لأني بعد كل رسالة كنت أمارس رجولتي وأمزق شرايين الورقة لتنزف طوالَ الليل حبرًا وحبًّا ثم أرمي ما بقي في النار لينضج الغرور في نفسي يوما بعد يوم...

أما الآن، أنا هنا أسيرُ رسالةٍ تحتلُّني سطورُها وتُحكم قضبان عباراتها عليَّ...بقدر ما كنت أرقصُ فوق رمادِ خواطرِها، هي الآنَ تلتهمُني ويتَّسع الوجع، أدمنتُ حروفَها...سيدة الوجدان تتنفَّسُ عاطفةً عذراء كانت كلماتها خارطة البحث عن قلب غادرها بلا استئذان، وبقي هنا يطرق بابي وأنا تركته ينتظر ويحتضر...

هي جمعت كلَّ الأزمنة ولم تتخطَّ الحدود، مغامرةً تسافرُ على مَتْنِ عباراتها حتى وإن لم تتعدَّ رحلتها بياضَ الحُلم...هي امرأةٌ مصنوعةٌ من حبرٍ وورقٍ وخيالٍ، تبتكر زواياها لتكبر مساحةُ الفرح داخل كلماتِها، تختبئُ بين السطور وتبوح أبجدياتها بكل أسرار الحبّ...كانت وافرةَ الأمل تحمل بين يديها قلبًا و

قلمًا يكتب لي...فقط لم تُرِدْ أكثرَ من قراءةِ رسائلِها لتستنشقَ حروفُها عطري وتوصي الورقَ أن يسلم على أناملي حين ألامسه...في نهاية الرسالة تَوَقَّفْتُ لبرهة وتَنَهَّدْتُ بعمقٍ...كَثُرَتْ الخَرْبَشَات، وتبعثرت حروفُها، وخفت بريق الشوق، ثم عادت إلى آخر السطر وقالت: "عدني أن تكون دائما بخير لأجلي...سلام"...

لم يكن الأمر بهاته السهولة؛ فأنتِ سيدتي طَوَيْتِ الرسالة لكن الماضي لم يُغادر؛ إنه يحيل الحاضر أضغاثَ أفكارٍ...كانت هاته الرسالةُ الأخيرةَ والوحيدةَ التي نَجَتْ من حماقاتي العديدة ولم ينفّذ فيها حكم الإعدام، لا أعلم كيف! ربما لتبقى لعنتُها معي أم هو القدر؟...امرأةٌ تعيش على قيد الكتابة...توقفتْ رسائلها فجأة؟! نعم ماتت، مات الجسد الذي لم تُعِرْهُ يومًا انتباهًا، ولم تعش بداخله إلا من خلال خبر موتها!!

أعاد لي ما كان، وتوقَّفَ معه ما سيكون، توقف الوقت وأصبحت الأيام تشبه بعضَها، وكل تفاصيلها لا طعم لها ولا لون...موتُها كان إعلانًا عن أني سأبقى على قيد الوفاء...لأنه لم يَبْقَ لي سوى التحديق في الحروف، فهمتُ متأخرًا أن قلبي لم يَتَّسِعْ لحبٍّ يختصر الكون...كانت تحلُم فقط أن تحيا قرب ابتساماتي!

والآن...أنا في هذا الوسع من الأحزان...بقيت وحدي أبحث عنها بين ما كان وما لم يكن...إذا كنتِ قد أحببتِني حقًّا؛ فخذيني سيدتي من هنا...اسحبيني إلى عالمٍ من ورقٍ؛ لأني هناك فقط وُلِدْتُ وكَبِرْتُ على يديك...أما الآن أنا بقايا إنسان يُلَمْلِمُ قلبًا أعياه البحث عن مملكة الوجدان!!